

## حجاجية الكلمة في الآيات القرآنية الكونية

## وفق قانون الأجدى والأنفع

The argumentaion of the word in the Universal Quranic versés.  
according to the law of the most beneficial and beneficial

د.بن يمينة فاطمة<sup>1</sup>

جامعة ابن خلدون تيارت الجزائر

Aminafatima14@outlook.fr

تاريخ الوصول 2020/08/16 القبول 2021/09/18 النشر على الخط 2021/11/30

Received 16/08/2020 Accepted 18/09/2021 Published online 30/11/2021

## ملخص:

تتناول هذه الورقة البحثية موضوع حجاجية الكلمة القرآنية في الآيات الكونية، حيث تهدف الدراسة إلى الكشف عن القدرة التأثيرية للكلمة على المتلقي ، وإثبات ما للانتقاء أو ما لقانون الأجدى والأنفع من دور فعال في استمرارية الوظيفة الاقناعية للكلمة القرآنية، وقد اقتصر هذا المقال على بعض الكلمات في بعض الآيات، كنماذج تطبيقية لتمكين القارئ من الوقوف على خصوصية الكلمة القرآنية المنتقاة، وما تحمله من حمولة دلالية متجددة تجدد العصر والفكر.

**الكلمات المفتاحية:** الحجاج، التأثير، الانتقاء، المتلقي، الكلمة القرآنية.

**Abstract:**

This paper deals with the subject of the Qur'anic Word argument in the cosmic verses, where the study aims at revealing the influence of the word on the recipient, and proving the effective role of the selection or the benefit of the law in the continuity of the feudal function of the Qur'anic word, and this article is limited to some words in some verses. As application models, the reader is able to learn about the specificity of the selected Qur'anic word, and the rolling payload of the new semantic, epic, and intellectual renewal.

**Key words:** Pilgrims, influence, selection, recipient, Qur'anic Word.

البريد الإلكتروني: Aminafatima14@outlook.fr

<sup>1</sup> - المؤلف المرسل: بن يمينة فاطمة

**1. مقدمة:**

أضحى من البديهي أن الغاية المرجوة من أيّ خطاب حجاجي هو؛ إقناع المتلقي واستمالاته، والدفع به إلى الإذعان لما يطرح عليه من طرف المتكلم، وذلك أنّ موضوع الحجاج هو « أن يجعل العقول تدعن لما يطرح عليها من آراء، أو أن تزيد في درجة ذلك الإذعان. فأنجح الحجاج ما وُفق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب (إنجازها أو الإمساك عنه)، أو هو ما وُفق على الأقل في جعل السامعين مهيبين للقيام بذلك العمل في اللحظة المناسبة»<sup>(1)</sup>.

ولتحقيق هذه الغاية يلجأ المتكلم إلى اختيار وانتقاء؛ الأدوات اللغوية، والأساليب البلاغية، المناسبة لأداء الوظيفة الإقناعية الاستدلالية؛ المتمثلة في حمل المتلقي على تغيير وجهة نظره، أو موقفه، أو تغيير سلوك من سلوكاته. تعد الكلمة أو اللفظة من أهم الأدوات اللغوية، التي من خلالها يستطيع المتكلم تمرير أفكاره إلى المتلقي، والدفع به إلى الإقناع بموضوع الخطاب. ولا يخفى على أحد ما للكلمة القرآنية المنتقاة بعناية ربانية، من دور فعال في بناء الخطاب القرآني، الذي يعد خطاباً حجاجياً بالدرجة الأولى.

وعليه؛ نحاول من خلال هذه الورقة البحثية الوقوف على دور الكلمة القرآنية، في جعل المتلقي يستسلم ويزداد تسليماً وإذعاناً، كلما زاد قراءة وتمعنا للخطاب القرآني. وذلك من خلال الإجابة عن الإشكالية التالية:  
هل للكلمة المعجمية المفردة حمولة حجاجية بذاتها، أم للسياق دوره في إكساب الكلمة تلك الحمولة؟ ما دور الكلمة القرآنية في تغيير مسار الخطاب القرآني من معنى إلى معنى آخر؟

**2. الكلمة ودورها الفعال في بناء الخطاب الحجاجي**

تعد الكلمة ذات الحمولة الحجاجية المنتقاة من طرف المتكلم، من بين الأدوات اللغوية المساهمة في إرساء فكرة أيّ خطاب موجه للمتلقي، وذلك لأنّ « اختيار المتكلم ألفاظه للتعبير عن أفكاره قلما يكون اختياراً لا تتحكم فيه غايات حجاجية خصوصاً حين يكون اللفظ (أ) الذي وقع عليه الاختيار لفظاً فيه عدول عن الكلام العادي فباستخدام هذا اللفظ القائم على العدول يقع التنبية إلى مقصد المتكلم الحجاجي وإن كان استخدام اللفظ العادي الذي لا يكون فيه عدول عن الكلام العادي ربّما كان هو أيضاً علامة حجاج ومستخدماً من أجل الحجاج فالمهم عند برلمان أنّه في أيّ خطاب تتجلى الغايات الحجاجية والوسيلة المحققة لتلك الغايات هي الاستبدال دائماً العنصر (ب) بالعنصر (أ)»<sup>2</sup> وهذا العدول عن الكلام العادي هو ما سماه عبد الله صولة؛

<sup>1</sup> - عبد الله صولة، في نظرية الحجاج - دراسات وتطبيقات - مسكيلي للناشر والتوزيع، تونس، ط (01)، 2011م، ص: 27

<sup>2</sup> - عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص: 78

بقانون الأجدى والأنفَع\* مقتديا بديكرو، والمقصود به أن ينتقي المتكلم الكلمة المناسبة والتي تحمل بذاتها «قدرة كلامية وبراعة حجاجية»<sup>1</sup> وقوة تأثيرية أكثر من غيرها لإقناع المتلقي.

حيث أنّ؛ اختيار المادة اللفظية من الاستراتيجيات التأثيرية التي تقوم «على عملية فرض جملة من المعطيات والنتائج الموجهة حواريا بصفة حتمية لا تترك للمتلقي؛ أيّ خيار في اختيارات أخرى؛ بل هو مطالب بالافتتاح بصحة ما توصل إليه بفعل القراءة أو السماع... إذن فهو مطالب بقبولها بدافع نفسي»<sup>(2)</sup> ولاسيما إذا كان ما يطرح عليه مستوحى مما يؤمن به من عقائد أو عادات؛ كاعتقاد المؤمن وإيمانه بكل ما جاء في القرآن الكريم.

### 3. القيمة الحجاجية للكلمة القرآنية

لللمة القرآنية حملتها الحجاجية، وقوتها التأثيرية، بوصفها «كلمة ملزمة للمتلقى [المسلم] أسرة إياه بما لها من معنى معجمي في اللغة وبما لهذا المعنى المعجمي من مقتضى دلالي معجمي قابل لأن يتحول في الملفوظ إلى مقتضى براغماتي أو ما هو بمنزلة»<sup>3</sup> كمقتضى حجاجي لما تحمله في ثناياها من حجة سلطوية، تدفع بالمتلقي إلى الإذعان والافتتاح بكل ما يُطرح عليه دون أيّ معارضة. ولاغرو في أنّ لللمة القرآنية قدرة على تسيير، وتوجيه الخطاب وفق الغرض المقصود من الرسالة الموجهة من طرف المرسل، وذلك لأنّ إزاء خطاب ربّاني مفعم بالأدلة والبراهين، اعتمد في انتقائه للمفردة المناسبة لكل مناسبة؛ للاستدلال بها في كل مقال ومقام، وذلك لما لللمة الربّانية من قوّة تأثيريّة، وقدرة على تغيير السلوك والطباع.

حيث أنّ؛ العلم باللمة القرآنية والوقوف على أسرارها لا يزيد المتلقي إلا إذعانا لعظمتها وثقة بالعجز<sup>4</sup> أمامها. والجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم اتخذ من الكلمة معجزة تحدى بها أرباب الفصاحة والبيان في عصر القرآن، ومضى ذلك العصر وما تلاه من قرون إلى يومنا هذا، ولا تزال لللمة القرآنية هيبتها وسحرها الغلاب، وحجّتها السلطوية على النفوس، إذ بفضلها لم يجد المحتجون في أيّ عصر ثغرة ينفذون منها لمعارضة الخطاب القرآني. وذلك أنّ القرآن الكريم يختار الكلمة المعبرة، المتماشية مع كل العقليات المتجددة، من خلال توظيفه لللمة المعجمية الواحدة في سياقات متعددة ومتنوعة؛ لأغراض متعددة، مما يكسبها دلالة

\* تجدر بنا الإشارة هنا إلى أن قانون الأجدى والأنفَع، لقد وقف عليه القدامى في دراستهم للخطاب القرآني، وقد أطلق عليه البعض اسم التنكيت، ونلمس هذا في كتاب "بديع القرآن" لابن أبي الإصبع المصري (654هـ) في قوله: «هو أن يقصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون غيره مما يسد مسده لأجل نكته في المذكور ترجح مجيئه على سواه» [ابن أبي الإصبع المصري، بديع القرآن، تح: حنفي محمد شرف، دار نخبضة مصر، ج(02)، ص: 212] أما ما يقابل قانون الأجدى والأنفَع عند الزركشي (794هـ) في كتابه "البرهان في علوم القرآن" ما يسمى بمشاكله اللفظ للمعنى إذ يحده بقوله: "هو عدولك عن ذكر لفظ وذكر غيره لمعنى لطيف يطلبه المعنى" [بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ج(03)، ص: 378]. أما ابن الأثير في كتابه "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" فقد أشار إليه أثناء حديثه عن كيفية استدراج الخصم واستمالاته بقوله "لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها" [إبياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: أحمد الحوفي، بدوي طنابة، دار نخبضة مصر، القاهرة، ط(02)، ج(02)، ص: 250]

<sup>1</sup> - محمد التومي، الجدل في القرآن الكريم، فعاليته في بناء العقلية الإسلامية، شركة الشهاب، الجزائر، ص: 14

<sup>2</sup> - ينظر: محمد شطاح بوقرة "تحليل الخطاب الأدبي و الإعلامي بين النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب، ط(01)، 1427هـ - 2006م، ص: 15

<sup>3</sup> - عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دارالفارابي، بيروت، لبنان، ط (01)، 2001م، ط(02)، 2007م، ص: 113

<sup>4</sup> - ينظر: محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار القلم، الكويت، ص: 79

عميقة، وحيّة دامغة، تجعل القارئ للقرآن الكريم المتأمل لألفاظه ومعانيه في أي عصر كان، يقف على معان جديدة وفقا لرؤيته الجديدة.

إذ يعود ذلك إلى أنّ الخطاب القرآني لا يتناول شأنًا من شؤون القول؛ إلا وتخير له «أشرف المواد، وأمسها رحما بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد وأقبلها للامتزاج، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به؛ بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين، وقراره المكين، لا يوما أو بعض يوم، بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور فلا المكان يريد بساكنه بدلا، والساكن يبغى عن منزله حولا»<sup>1</sup>. وهذا ما جعل الكلمة بعينها في القرآن الكريم أين ما وضعت كالذرة اللامعة<sup>2</sup>، التي لا يرتضى عنها بدلا. وهو ما ميّز الخطاب القرآني وما فتح السبل المتعددة أمام المتلقي للإبحار فيه، واكتشاف ما تحمله الكلمة من حجج ودلائل جديدة غير التي اكتشفت من قبل، وهو ما سنقف عليه مع بعض الكلمات في بعض الآيات القرآنية.

#### 4. قانون الأجدى والأنفع في القرآن الكريم

أولى القرآن الكريم أهمية كبرى لقانون الأجدى والأنفع؛ من خلال انتقاء الكلمة المناسبة والمعبرة الحاملة في «طياتها الطابع الإقناعي البرهاني»<sup>3</sup> مركزا على الألفاظ المتداولة بين الناس لإبقاء حبل التواصل مشدودا بينه وبينهم، ومن ثمة العمل على استدراجهم إلى قبول الكلمات والمفاهيم الجديدة التي ستطرق آذان العرب بمدلولات مغايرة لمعرفتهم الخلفية لها، أو بمدلول لم يسبق لهم استعماله أو سماعه؛ مثل استخدامه للفظتي "الرب" و "الله"؛ فكلمة الرب كانت متداولة بين العرب ولاسيما بين أهل الكتاب، مما جعل الله يوظفها في الكثير من السور المكية في حين نجد القرآن يوظف كلمة الله - التي لم يكن لها ذكر قبل نزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم - في السور المدنية وذلك لاعتقاد المؤمنين عليها فأصبحت متداولة بينهم؛ بعد ما ترسخ الإيمان بالإسلام في القلوب والأذهان والألسن<sup>4</sup>.

كما نلمس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾<sup>5</sup> إشارة إلى استعمال قانون الأجدى والأنفع من خلال اختيار الكلمة التي لا تحمل إلا القول الحسن الطيب اللائق في مخاطبة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ وذلك لأنّ كلمة "راعينا" هي لفظة صحيحة بقصد المسلمين الذين كانوا يطلبون من النبي عليه أزكى الصلاة والسلام مراعاة ظروفهم، غير أن هذه الكلمة نفسها كانت تحمل معنى فاسداً قبيحاً، بالنسبة لليهود الذين استغلوا الفرصة لمخاطبة الرسول عليه الصلاة والسلام قاصدين بما المعنى الفاسد؛ وعليه نهي الله المؤمنين عن هذه الكلمة سدا لهذا الباب، ففيه النهي عن

<sup>1</sup> - المرجع نفسه، ص: 92

<sup>2</sup> - نفسه، ص: 91

<sup>3</sup> - فريدة رضاني، الحجاج اللغوي في الحديث النبوي الشريف - حجاجية الكلمة أنموذجا - مقارنة تداولية، مجلة دراسات لسانية، مجلة أكاديمية محكمة تصدر عن قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة البليدة رقم 2\الجزائر، المجلد 03، العدد 01، 2019م، ص: 48

<sup>4</sup> - ينظر: محمود المصفار، سيميائية القرآن بين الحجاج والإعجاز، وحدة تحليل الخطاب، نشر وتوزيع شركة المنى، 2008م، ص: 63

<sup>5</sup> - سورة البقرة، الآية: 104

الجائز إذا كان وسيلة إلى محرم، فأمرهم بتبديلها بلفظة "أنظرنا" التي لا تحتل إلا الحسن من القول للغرض المقصود من غير محذور<sup>1</sup>. كذلك نجد القرآن الكريم في آية أخرى يعلمنا معنى قانون الأجدى والأفنع؛ من خلال الإشارة إلى سوء الاستعمال لبعض الألفاظ بقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>2</sup> فالملاحظ أن الله يبيّن لنا الفرق بين مدلول اللفظتين وما الفرق بينهما حيث أنّ كلمة "آمنّا" تختلف عن "أسلمنا"؛ فالإيمان الذي اشتقوا منه الفعل "آمنّا" مطلوب في تحقيقه أمران: نطق باللسان، وتصديق بالقلب ليوطئ القول الاعتقاد، وهم لم يكونوا كذلك لأن نصيبهم من الشريعة حين ادعوا ذلك لا يجاوز القول باللسان بدليل: "ولما يدخل الإيمان قلوبكم". وحالهم هذه ينطبق عليها قولهم "أسلمنا" المشتقة من كلمة الإسلام الذي هو حقيقة الامتثال الظاهري للشريعة من قول أو عمل<sup>3</sup>. وهكذا يعلمنا القرآن الكريم كيفية اختيار الكلمة بالقدر الذي يتطلبه الموقف أو الحال، بوصفه خطاباً «ينبغي على متكأ سياقي يتعلق بعناصر سياقية تحكم عملية التواصل بين المرسل والمستقبل»<sup>4</sup> ولقد لجأ القرآن إلى هذا الاستعمال مراعاة للأحوال الثقافية والاجتماعية للعرب، ومراعاة ظروف المخاطب شرط من شروط الإقناع عند منظري الخطاب الإقناعي.

### 5. دقة توظيف قانون الأجدى والأفنع في التعبير القرآني:

مما لا ريب فيه أن آية قرآنية قرأناها ثم أعدنا قراءتها مرة أخرى، إلا ووجدنا أنفسنا إزاء معنى جديد غير الذي توصلنا إليه من قبل، وذلك أن الكلمة القرآنية تنطوي في ذاتها على إشارة إلى بعض الحقائق والمعاني التي لا تنكشف إلا في وقتها المحدد من طرف الله عز وجل، وهو ما جعل من هذه الكلمة تتحول من مجرد لفظة عادية إلى «رافد من روافد الحجاج»<sup>5</sup>. حيث كانت وما تزال وافية بمحاجيات المتلقي -على اختلاف مستوياته- في الإقناع والتحدي، وذلك بعد ما اتسع سلطانها على القلوب بسحر بيانها وبلاغتها، تتحول مع تقدم العصور وتقدم المنكرين الجاحدين في العلم المادي؛ إلى حجة علمية، تتحدى الكثير من أئمة العناد، ودعاة الجحود، والكفر من الملحدّين المشككين، في ما جاء في القرآن الكريم. خاصة؛ أصحاب النظريات العلمية في العصر الحديث - مع نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين - الذين اتخذوا من العلم والعقل حجة لمحاججة القرآن. وهو ما سيتبن لنا من خلال بعض الأمثلة التي سنقدمها:

قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾<sup>6</sup> إنّ ما يستوقفنا في هذه الآية اختيار رب العالمين لكلمة "صيّب" التي تعني لغة المطر الغزير المصحوب بالبرعد

<sup>1</sup> - ينظر: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط(01)، 1420هـ - 2000م، ص: 180. وينظر: عاطف المليحي، دلالات الألفاظ وسر الكلمة في القرآن الكريم، ط01، 2002م،

<sup>2</sup> - سورة الحجرات، الآية: 14

<sup>3</sup> - ينظر: عاطف المليحي، دلالات الألفاظ وسر الكلمة في القرآن الكريم، ص: 11

<sup>4</sup> - بليغ عيد، مقدمة في نظرية البلاغة النبوية السياق وتوجيه دلالة النص، دار الكتب، الرياض، ط01، 1429هـ\2008م، ص: 216

<sup>5</sup> - فريدة رضائي، الحجاج اللغوي في الحديث النبوي الشريف - حجاجية الكلمة أمودجا - مقارنة تداولية، ص: 58

<sup>6</sup> - سورة البقرة، الآية: 19

والبرق، والصواعق والعواصف الشديدة والذي إذا ما نزل بمنطقة ما حوّل نهارها إلى ليل شديد الظلام، وهو مشهد صورته كلمة "صَيَّب" في صورة ملائمة لمدارك المشركين والمحتجين المعارضين للقرآن الكريم، في زمن نزول الوحي. والكلمة "صَيَّب" نفسها نجد علماء الإعجاز العلمي في القرآن الكريم - أمثال زغلول النجار - في العصر الحديث يستخدمونها للرد على «أرباب القلوب الغليظة المعتمة»<sup>1</sup>.

حيث تنطبق كلمة "صَيَّب" على الأعاصير الرعدية العنيفة، المعروفة بالأعاصير الحلزونية أو بالأعاصير الدوارة (Cy Clones)، وهي أعاصير عنيفة الحركة والسرعة، تتشكل من كتل من الهواء تدور حول منطقة من مناطق الضغط المنخفض، في عكس اتجاه الساعة في نصف الكرة الشمالي، وفي اتجاهها تماما في نصف الكرة الجنوبي، وتتحرك هذه الأعاصير بسرعات فائقة مما يجعلها عنيفة ومدمرة لكل ما يصادفها في طريقها، باعثة الرعب والهلع في نفوس الناس، وما يزيد من مخاوف الناس، تلبد السماء بالغيوم الداكنة السميكة القريبة من سطح الأرض، الحاجبة لأشعة الشمس بالنهار، ونور القمر، والنجوم بالليل، محدثة ظلمة قابضة، ويصاحب هذه الظلمة حدوث كل من ظاهري البرق والرعد، وهطول الأمطار بغزارة شديدة، وهو ما جسده لنا كلمة "صَيَّب" في الآية الكريمة بدقة علمية بالغة وما زادها دقة ورودها في مقام التشبيه.

أما ما يجعل من كلمة "صَيَّب" حجة مقنعة أنها كلمة منتقاة بعناية ربانية لم تفقد، ولن تفقد صلاحيتها في التعبير الدقيق عن المعنى المقصود منها لكل عصر من العصور المتوالية؛ إذ أنّ هذه الأعاصير لم تعرف صفاتها ولم يتم تصنيفها إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي<sup>2</sup> مع ظهور النظريات العلمية لاسيما تلك التي تبحث في الكون وخلقه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾<sup>3</sup> فالكلمة التي تشدّ انتباه القارئ في هذه الآية الكريمة؛ هي كلمة "بعوضة" هذه الحشرة التي تبدو للكثير من البشر أنها بسيطة ولا ترقى لأن يضرب بها الله الأمثال، أو حتى أن يلقي لها أحد من الجماهير بالآل. لكن الله عزّ وجلّ لضعف وحقارة هذه الحشرة ولعدم اكتراث الجماهير عامة بما ضرب بها المثل؛ حتى تكون حجة على الجهل بخلق الله وقدرته وعظمته. كما أنّ ضرب الأمثال في القرآن الكريم «ليس تنميحا للكلام ولا تحريفا لوظيفة الخطاب، وإنما تحقيق لأقصى إمكانات التبليغ تحقيقا يؤدي إلى انتهاض المخاطب بالعمل والتغيير»<sup>4</sup>.

كما أنّ المثل حجة قائمة بذاتها يمتلك من السلطة ما يجعله قادرا على إقناع الخصم وإفحامه، لما له من مكانة بين الجماهير ووظيفة لا ننكر فائدتها، إذ له تأثير عجيب على السامع، وتقرير غريب للمعاني في الأذهان<sup>5</sup> وكل ذلك بفضل تداول وشيوع المثل

<sup>1</sup> - عبد القادر عطا، عظيمة القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص: 53

<sup>2</sup> - ينظر: زغلول راغب محمد النجار، تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2007م، ط(01)، ج(01)، ص: 64

<sup>3</sup> - السورة البقرة، الآية: 26

<sup>4</sup> - طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط(01)، 1998م، ص: 293

<sup>5</sup> - ينظر: ابن القيم الجوزية (751هـ)، المثل في القرآن الكريم، تح: سعيد محمد نمر الخطيب، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1981م، ص: 22

المثل بين الخاص والعام. وما يعيننا في هذه المماثلة "كبعوضة" أن الله سبحانه وتعالى جاء بها لمعارضة كلام العرب المشهورين بأمثالهم وحكمهم، من أجل استمالتهم وجلب قلوبهم؛ بغية تربية عقولهم على التفكير الصحيح «بواسطة قياس المشابهة»<sup>1</sup>. ومن ثمة العمل على استنباط دلالات النص القرآني.

هذا؛ وبما أنّ الكلمة القرآنية تتفاوت حججيتها بتفاوت دلالاتها، وتتقدم العصور وتقدم العلوم، فإنّ كلمة "بعوضة" لفتت انتباه علماء العصر الحديث، ودفعت بهم إلى البحث عن السر وراء ذكر هذه الحشرة في القرآن الكريم، وعن سر تأنيث الكلمة بدلا من تذكيرها. وقد وصل العلم إلى أنّ هذه الحشرة معجزة حقيقة، حيث أودع الله سبحانه فيها من آياته وقدرته ما يجعل العقول حيارى، فمثلا تركيبها الجسماني، خاصة الرأس الحامل لأعين مركبة بعدد كبير من العدسات الصغيرة، والذي يحتوي على الهوائيات، وكذلك الفم المهز لامتصاص الدماء لدى الأنثى، وامتصاص الرحيق لدى الذكر. كما استطاع العلم أن يكشف عن السر اللغوي في تأنيث الكلمة "بعوضة" بدلا من تذكيرها "بعوضا" وهو إشارة من القرآن الكريم إلى تمايز الأنثى عن الذكر في هذه الحشرة المعجزة، حيث تتفرد الأنثى وحدها دون الذكر بنشر خطر الموت بسبب نقلها للأمراض\* العديدة للإنسان، وذلك لأنّ البعوضة تتغذى على دم الإنسان والحيوانات، أما ذكرها فيتغذى على النباتات ورحيق الأزهار<sup>2</sup>، وهذه حقيقة من الحقائق الإلهية التي حملتها الكلمة في طياتها، فأصبحت بعد اكتشافها حجة دامغة قاهرة لمزاعم الجاحدين، لا يعجز عن إدراكها إلا كل معتد أثيم.

قال تعالى: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْخُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾<sup>3</sup> تعد هذه الآية من الآيات الكونية التي تحمل كلماتها الكثير من الحجج، المفنّدة لدعاوي المبطلين من أهل الكفر والشرك والضلال، والقادرة على تطهير العقول المختلفة، والنفوس المريضة. فكلمة "فالتقمه" يقول عنها الدكتور زغلول النجار أنه بعد قراءته لقصة سيدنا يونس عليه السلام العشرات من المرات والعشرات من السنين، يتبادر في ذهنه سؤال حول المفردة في ذاتها؛ بمعنى لماذا قال تعالى التقمه ولم يقل ابتلعه أو هضمه؟ إذ دفع به هذا السؤال إلى إعادة البحث والتنقيب عن سر الكلمة، وليجيب عنه ذهب إلى دراسة طبيعة الحيتان، ليتوصل إلى معجزة علمية ثاوية وراء كلمة "فالتقمه" تتمثل في اكتشاف نوع خاص من الحيتان الزرقاء؛ التي تعد أضخم حيوان على وجه الأرض، وعلى ضخامتها فهي بلا أسنان وبلعومها لا ييلع إلا الأشياء الدقيقة ولا يأكل إلى الكائنات الميكروسكوبية، الضئيلة التي تسمى "البلانكتون" وبعد استفاضته في البحث حول هذا الحوت وعلاقته بقصة سيدنا يونس عليه السلام يقول: أن الحوت الذي التقم النبي يونس عليه السلام من الحيتان الزرقاء التي كانت تملأ البحار والمحيطات في عهده، ويرى أن من رحمة رب العالمين بالعباد؛ أنه أبقى على هذا النوع من الحيتان التي تتسع أفواهاها إلى أكثر من خمسين رجلا، دون أن يؤذى أي منهم لانعدام أسنانها ومطاطية حلوقها، وضيق بلاعيمها التي لا تتسع لابتلاع أكثر من الكائنات الدقيقة، الهائمة والسابحة في الطبقة العليا من مياه البحار والمحيطات، واضطرابها للارتفاع برؤوسها فوق سطح الماء لكي تتنفس الهواء مرة كل (10) إلى (15) دقيقة، ونظافة أجسامها من الطفيليات بصفة عامة، وغير ذلك من الصفات

<sup>1</sup> - رولان بارت، قراءة جديدة في البلاغة القديمة، تر: عمر أوكان، إفريقيا الشرق، 1994م، ص: 105

\* - من أخطر الأمراض التي تتسبب فيها البعوضة: الملاريا، حمى الصفراء، حمى الضنك..

<sup>2</sup> - ينظر: زغلول راغب محمد النجار، تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم، ص: 79-84

<sup>3</sup> - الصافات، الآية: 142

التي اختص الله بها الحيتان الزرقاء<sup>1</sup> لتكون شاهد عيان على عظمة الله وقدرته في خلقه، ولتكون حجة على الجاحدين بتيسير فهم حدوث المعجزة التي حدثت لسيدنا يونس عليه السلام وأخبر بها القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾<sup>2</sup> الكلمة التي سنقف عليها في هذه الآية هي كلمة "دحاها" التي فهمها القدامى على أنها إخراج الماء بتفجير عيونها، وإجراء أنهارها وإنبات الكأ والنبات لتوفير المرعى وتسهيل الحياة للناس والدواب، وذلك وفقا لمداركهم الحسية، وتماشيا وعقول العصر.

أما مع تقدم العلوم وتطور الفكر البشري؛ فقد أخذت الكلمة نفسها معنى علمياً دقيقاً، قادراً على التأثير والتغيير في سلوك وتفكير المتلقي المعاصر؛ خاصة المتلقي النموذجي الذي لا يقتنع إلا بالأدلة والبراهين العلمية البعيدة عن الخيال والعاطفة، وذلك لأن الحجة باطنة مدسوسة في ذات الكلمة ولا سبيل إلى معرفتها، ما لم تتجسد في ظاهرة علمية تعزز القيمة المحاجية التي تحملها الكلمة.

حيث أصبحت كلمة "دحو" بمعنى إخراج الغلاف المائي والغازي من داخل الأرض، إذ أثبت العلم أن «كل ماء الأرض قد أخرجه ربنا-تبارك وتعالى- من داخل الأرض عن طريق الأنشطة البركانية المختلفة المصاحبة لتحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض، كذلك فإن أكثر الغازات اندفاعاً من فوهات البراكين بعد بخار الماء هو ثاني أكسيد الكربون، وهو لازمة من لوازم عملية التمثيل الضوئي التي تقوم بتنفيذها النباتات الخضراء مستخدمة هذا الغاز مع الماء وعدداً من عناصر الأرض لبناء خلايا النبات وأنسجته وزهوره، وثماره»<sup>3</sup>.

وبإشارة من الله إلى إخراج المرعى في قوله ﴿أَخْرَجَ مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ يتبين للمتدبر المتأمل للآية الكريمة، وما توصل إليه العلم الحديث؛ أن الله عز وجل يشير إلى إخراج غاز ثاني أكسيد الكربون، وغيره من الغازات اللازمة لإنبات الأرض، وإكسائها خضرة ونضرة. وهذا ما كان ليعرف في زمن نزول الوحي، وما كان لأحد أن يفهم "دحو الأرض" بهذا المفهوم. لكن طبيعة العقل المعاصر المشكك في كل شيء، هو ما جعل الله يسخر من يبحث في دلالة الكلمة من جديد -من عباده الذين أتاهم بسطة في العلم- لتكون حجة من جنس حجج العصر، أي لتكون حجة علمية في زمن تمجيد الإنسان المعاصر للعلم والعقل. وعليه تكون دليلاً على عجز المحاججين في أي زمان وفي أي مكان.

## خاتمة:

وختاماً يتبين أن القيمة المحاجية للكلمة القرآنية تتمثل في أنّ:

<sup>1</sup>-ينظر: زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلمي - الحيوان في القرآن الكريم- دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط(01)، 1427هـ\2006م، ص: 385-

400

<sup>2</sup>- النازعات، الآية: 30

<sup>3</sup>- زغلول النجار، مدخل إلى دراسات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية، ص: 182



- القرآن الكريم ليضمن لها استمراريتها، وقوة تأثيرها على المتلقي، جعلها مفتوحة الدلالة، أو بالأحرى كتابا مفتوحا لكل ناظر متأمل متدبر، ولذلك لم يستطيع أحد بعد أن يلزم بكل ما تزخر به من أسرار ربانية، ورغم كل المحاولات الجارية تبقى الأبحاث فيها محدودة حدود القصور الفكري البشري.
- حمولة الكلمة القرآنية واحتفاظها بهذه الحمولة منذ نزول القرآن الكريم، لدليل قاطع على أن الله في انتقائه للكلمة لحجة قائمة على التأس، مقام الاستدلال والبرهان على ألوهيته ووحدانيته مدى الدهر.
- كانت ولا تزال الكلمة القرآنية بما اكتسبتها من حجج وأدلة، ثابته وراء معنى مقصود، موجه لمتلق مقصود في زمن مقصود، ووسيلة من وسائل تحدي وإقحام الخصوم والمعاندين المنكرين للإعجاز القرآني.
- تتفاوت وتتباين حجائية الكلمة القرآنية، بحسب الدلالات المتولدة عنها، ذلك أن الكلمة القرآنية تفهم وفقا للسياقات التي ترد فيها. وذلك لأن كل كلمة تحمل بشكل جوهري قوة تأويلية داخلية، لا تظهر إلا بعد مجاهدة ومكابدة من طرف المتلقي. لذلك فالكلمة القرآنية كلما كشفت عن سر من أسرارها، إلا زادت المتأمل المتدبر من المؤمنين إيمانا وثباتا، ودفعت بغير المسلمين خاصة المفتونين بالنظريات العلمية إلى الاقتناع والاستسلام.

### قائمة المصادر المراجع:

- 1- ابن أبي الإصبع المصري، بديع القرآن، تح: حنفي محمد شرف، دار نضضة مصر
- 2- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة
- 3- بليغ عيد، مقدمة في نظرية البلاغة النبوية السياق وتوجيه دلالة النص، دار الكتب، الرياض، ط01، 1429هـ\2008م
- 4- رولان بارت، قراءة جديدة في البلاغة القديمة، تر: عمر أوكان، إفريقيا الشرق، 1994م
- 5- زغلول راغب محمد النجار، تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2007م
- 6- زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلمي - الحيوان في القرآن الكريم - دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط(01)، 1427هـ\2006م.
- 7- طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط(01)، 1998م
- 8- ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أب الكاتب والشاعر، تح: أحمد الحوفي، بدوي طنابة، دار نضضة مصر، القاهرة.
- 9- عاطف المليجي، دلالات الألفاظ وسر الكلمة في القرآن الكريم، ط01، 2002م
- 10- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط(01)، 1420هـ - 2000م.
- فريدة رمضاني، الحجاج اللغوي في الحديث النبوي الشريف - حجائية الكلمة أنموذجا - مقارنة تداولية، مجلة دراسات لسانية، مجلة أكاديمية محكمة تصدر عن قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة البليدة رقم 2\الجزائر، المجلد 03، العدد 01، 2019م
- 11- عبد القادر عطا، عظمة القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان

- 13- ابن القيم الجوزية (751هـ)، المثل في القرآن الكريم، تح: سعيد محمد نمر الخطيب، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1981م
- 14- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دارالفارابي، بيروت، لبنان، ط (01)، 2001م، ط(02)، 2007م
- 15- عبد الله صولة، في نظرية الحجاج - دراسات وتطبيقات - مسكيليني للنشر والتوزيع، تونس، ط (01)، 2011م
- 16- محمد التومي، الجدل في القرآن الكريم، فعاليته في بناء العقلية الغسلامية، شركة الشهاب، الجزائر
- 17- محمد شطاح بوقرة "تحليل الخطاب الأدبي و الإعلامي بين النظرية و التطبيق، مكتبة الآداب، ط(01)، 1427هـ - 2006م
- 18- محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار القلم، الكويت
- 19- محمود المصفار، سيميائية القرآن بين الحجاج والإعجاز، وحدة تحليل الخطاب، نشر وتوزيع شركة المنى، 2008م